الأدب المصري في عصر الدولة الطولونية (254-292هـ)

عمل أحمد بن طولون [1] منذ أن تولى مصر سنة 254 هـ على أن تكون خالصة له دون العباسيين، وما زال يعمل من أجل هذا الهدف حتى تم له ما أراد، وقد هيأت الظروف له ذلك؛ فلقد كانت بغداد في تدهور، وكان الخلفاء في انقسام، وقد اتسع ملك ابن طولون حتى شمل مصر والشام والحجاز واليمن، وكان همه الأكبر إصلاح مصر حتى يزيد خيرها ويرفه حالها؛ ولذلك تقدمت الحضارة في عهده كما تقدمت في عهد أسرته، وراح الطولونيون يصرفون ببذخ وإسراف، وعم ذلك مظاهر الحياة كلها.

أ- الشعر

نشط الأدب عامة والشعر خاصة في عصر الدولة الطولونية، ويمكن إرجاع ذلك إلى عدة أسباب، منها:

1- ضعف الدولة العباسية وانقسامها إلى دويلات أدى إلى تنافس الأمراء على تشجيع الأدباء والشعراء، واتخاذهم وسيلة لنشر سلطانهم وازدياد نفوذهم، وقد تنافس الشعراء في خدمة الأمراء، وممن سعى إليه الشعراء في ذلك الوقت وتنافسوا في خدمته، أحمد ابن طولون وأسرته.

2- كان الطولونيون بمصر أهل كرم وبذخ وثراء، يعطون الأموال، ويهبون الهبات، ويغدقون الأعطيات، ويستقدمون الشعراء، ويقربونهم إليهم، وقد أدى ذلك إلى أن يتحول قصرهم إلى بلاط شعري كبير، ينافس البلاط الأدبي العباسي.

---

(1) انظر: في ترجمته وسيرته: سيرة أحمد بن طولون، البلوي، تحقيق: محمد كرد علي، ط الهيئة العامة لقصور الثقافة، سنة 1999م؛ المغرب، ابن سعيد، تحقيق: د. شوقي ضيف وآخرين، من ص 73 إلى ص 146، وفيات الأعيان، ج 1، ص 95.

obeikandl.com

وقد اجتمع في مصر – آنذاك – عدد كبير من الشعراء الذين عاشوا منعمين مترفين، يقصدون الطولونيين مادحين، ويغدون عليهم طالبين.

3- الاستقرار السياسي، الذي أدى إلى استقرار وازدهار الحضارة، واستقرار الحالة الاجتماعية، والذي كان سببًا في استقرار نفسية الشعراء، وتعبيرهم عن هذه المظاهر الحضارية التي أصبحت مادة خصبة لخيالهم، ومجالًا لتصوراتهم، ومغذى لتأملاتهم. ويكفي أن نشير هنا إلى أن الطولونيين قد اهتموا ببناء الدور والقصور والميادين اهتمامًا بالغًا، إلى درجة أن المقريزي يروي عن أبي الخطاب بن دحية في كتاب النبراس، من أن قطائع ابن طولون كانت نيفًا على مائة ألف دار نزهة للناظرين، محدقة بالجنان والبساتين"[1].

ويمكن أن نجمل **مظاهر نشاط الأدب وازدهاره** في هذا العصر في شيئين اثنين، هما: الكثرة والتفوق.

ونعني بالكثرة: كثرة الشعراء، سواء من كان منهم خالص المصرية، ومن كان وافدًا على مصر، ودليل هذه الكثرة ما يحكيه المقريزي عن القاضي أبي عمرو عثمان النابلسي في كتابه "حسن السيرة في اتخاذ حصن بالجزيرة"، قال: "رأيت قدر اثنتي عشرة كراسة مضمونة، فهرست شعراء الميدان الذي لأحمد بن طولون، قال: فإذا كانت أسماء الشعراء في ثنتي عشرة كراسة، كم يكون شعرهم؟" [2]. ونحن نضيف من جانبنا تساؤلًا آخر، هو: كم يكون عدد هؤلاء الشعراء؟

وتتمثل الكثرة فيما عثرنا عليه من شعر، فلقد كنا في العصور السابقة نتحسس الطريق إلى النص الواحد، ونشكو من عدم النصوص أو قلتها، أما في هذا العصر فقد وجدنا القطع الشعرية تترى، والقصائد تتوالى.

وأما التفوق فنعني به جودة النص من حيث المعنى والأسلوب وقوة التراكيب.

---

(1) خطط المقريزي، ج 2، ص 124، نشر مكتبة الآداب، القاهرة، سنة 1996م.

(2) خطط المقريزي، ج 2، ص 124.

وكما كثر الشعراء وكثر شعرهم، وطالت قصائدهم، وقويت نصوصهم وجادت، فقد ظهرت على شعرهم ظاهرة جديدة، هي التنوع، ونعني بذلك تنوع الأغراض الشعرية؛ فلقد استمر شعراء هذه الفترة ينظمون في الأغراض الشعرية القديمة التي كانت في العصور السابقة، وبدأوا ينظمون في أغراض أخرى جديدة، لم نعرف لها وجودًا سابقًا في الشعر المصري، وسوف نلمح إلى بعض من هذه الأغراض القديمة والجديدة فيما يلي:

الأغراض الشعرية في العصر الطولوني:

أ- أبرز الأغراض القديمة:

1- المدح:

رأينا الشعراء في العصور السابقة يمدحون لغير غرض مادي في بداية الأمر، ثم ظهر من الشعراء من احترف المدح احترافًا، وفي عصر الدولة الطولونية ازداد هؤلاء المحترفون المتكسبون، وقد تتبع هؤلاء المتكسبون أعمال أحمد بن طولون وابنه خمارويه، فسجلوها في مدائحهم، واستطاعوا بذلك أن يعطونا صورة كاملة عن ابن طولون وتفكيره ومنشآته، والأحداث المهمة التي وقعت في عهد الطولونيين، وقد فعل ذلك من كان مخلصًا للدولة الطولونية، مثل إسماعيل بن أبي هاشم، ومن كان همه العطاء، مثل قعدان بن عمرو.

وقد يصعب علينا أن نميز بين المخلصين للطولونيين وغير المخلصين، ولكننا حينما نرى شاعرًا مثل ابن أبي هاشم يمدح الطولونيين، ويسكت عن مدح العباسيين الذين قضوا على الدولة الطولونية، ثم يمدح ابن الخليجي الذي ثار على العباسيين ورد الدولة الطولونية ثانية، نحكم عليه بالإخلاص.

وإذا رأينا غيره من مداح الدولة الطولونية، يمدحون قواد الجيش العباسي حين يتغلبون على الدولة الطولونية، مثل أحمد بن محمد الحبيشي، نحكم عليهم أنهم متكسبون، لا يهمهم من يقدمون لهم المدائح.

والحق أن جمعًا غفيرًا من الشعراء قد التف حول ابن طولون وخلفائه، وأخذوا يمدحونه ويسجلون أعماله، حتى إنه لم يأت بعمل إلا ظهر في شعرهم؛ لأنه – في رأيهم –

جدير بالتسجيل، ومثال ذلك قول قعدان بن عمرو، حينما خلع أحمد بن طولون الموفق عن ولاية العهد:

طَالَ الهُدَى بابنِ طُولونَ الأميرِ كَمَا ... يَزْهُو بهِ الدِّينُ عَنْ دينٍ وإسْلامِ
قادَ الجيوشَ من الفُسْطاطِ يقدُمُهَا ... مِنْهُ على الهولِ ماضٍ غيرُ مِحْجَامِ
في جَحْفلٍ للمنايَا في مَقَانِبِه ... مكامنٌ بينَ راياتٍ وأَعْلامِ
يَسْمُو بهِ من بني سامٍ غَطارِفةٌ ... بِيضٌ وسُودٌ أسود من بني حامِ
حاطَ الخلافةَ والدُّنْيَا خليفَتُنَا ... بصارمٍ من سيوفِ اللهِ صَمْصَامِ
يا أيُّها النَّاسُ هُبُّوا ناصرينَ لَهُ ... مَعَ الأميرِ بدُهْمِ الخيلِ في اللَّامِ [1]

فالشاعر هنا يمدح ابن طولون بالدين والشجاعة وحسن القيادة والسياسة، ويثني عليه وعلى أفعاله، ويدعو الناس إلى نصرته والدفاع عنه، وهذا المدح يحمل في طياته تأييدًا لسياسة ابن طولون، وتبشيرًا بحسن سيرته، ويمكن القول إن هذا نوعًا من المدح السياسي، الذي يواكب الأميري، ويؤيد سياستهي، ويدعو إلى الوقوف بجانبه.

ومن هذا المديح السياسي، قول منصف بن خليفة الهذلي في مدح أحمد بن طولون أيضًا:

يا غُرَّةَ الدُّنيا الذي أَفْعَالُهُ ... غُرَرٌ بها كُلُّ الورَى تَتَعلَّقُ
أنتَ الأميرُ على الشآمِ وثغرِها ... والرَّقتينِ وما حَواهُ المشرقُ
وإليكَ مصرُ وبرقةٌ وحِجَازُهَا ... كُلٌّ إليكَ فؤادُه مُتَشوِّقُ
أسيافُنا بيضُ المنونِ فليتَهَا ... بنجيعِ مَنْ خَذلَ الإمامَ تُخَلَّقُ
تُمسِي وتُصْبحُ ضارِبًا مِنْ دُونِهِ ... بِمُهنَّدٍ منهُ الحتُوف تُفَرَّقُ [2]

(1) الولاة والقضاة، ص 227.
(2) الولاة والقضاة، ص 228.

ويمكن أن نعد قول القاسم بن يحيى المريمي في مدح خمارويه، حين انتصر على جيش الخلافة، ووصل إلى سامراء، من المديح السياسي أيضًا:

أَتَانَـا أبـو الجَـيشِ الأمـيرُ بيُمْنِـهِ   فَـشَرَّدَ عنَّـا الجَـوْرَ وافْتَقَـرَ العُـسْرُ
فـإن تـكُ أرضُ الـرَّقَّتينِ بـه اكتـستْ   ضـياءً وإشْرَاقًـا لقَـدْ أظْلَمـتُ مِـصْرُ
ولمَّـا رأَى الجـيشَ ابـنُ كنداجَ مُقـبِلًا   أرتَـهُ المنايَـا الحُمْـرَ أعلامُـهُ الحُمْـرُ
فـولَّى شرِيـدًا ذا ارتيـاعٍ كأَنَّـهُ   بكـلِّ بـلادٍ طـائرٌ مَـا لَـهُ وَكْـرُ
لَـئِنْ سَرَّ إسْـحَاقَ النَّجـاةُ بنفـسهِ   لقـدْ سـاءَه في جَمْعِـهِ القتـلُ والأسْرُ(1)

وقد أوقف هذا الشاعر شعره على مدح خمارويه، وقال فيه كل مدائحه، حتى سئل مرة أن يرحل عن مصر، فقال مفصحًا عن حبه لخمارويه:

يقولـونَ لي مـا بـالُ رحلِـك دائـمًا   بمصرَ وأنِّي لستُ عَنْ غَيرِهـا أرْضَى
وكيـفَ رَحِـيلِي عـن بـلادٍ غـدَا بِهَـا   أبـو الجـيشِ والنيـلُ الـذي مـلأَ

ونستطيع أن نقول إن المدح قد وصل إلى قمته حين أطاح العباسيون بالدولة الطولونية؛ حيث تحول المدح إلى نوع جديد من الشعر وفن من فنونه لم نجد له من قبل نظيرًا، وسوف نلمح إليه فيما بعد.

2- الهجاء:

وجد هذا الفن الشعري متصلًا بأحداث المجتمع، وكما أمكننا وصف المدح بأنه مديح سياسي، يمكن أيضًا أن نطلق على الهجاء بأنه كان هجاء سياسيًّا.

---

(1) الولاة والقضاة، ص 236، 237؛ وانظر: المريمي شاعر العصر الطولوني، جمع ودراسة: هلال ناجي، ضمن ديوان الحسن بن علي، ط دار الجيل سنة 1991.

(2) المغرب، ج 1، ص 136.

obeikandi.com

ويتمثل هذا النوع من الهجاء عند شاعر واحد، هو محمد بن داود، الذي رفع علم المقاومة، ووقف لأحمد بن طولون خاصة بالمرصاد، وتتبع كل عمل من أعماله، ففسره أسوأ التفسيرات، وصب على الرجل جام الغضب واللعنات، ورماه بأقبح الصفات، ومن ذلك أن أحمد بن طولون أمر ببناء مسجد ومارستان، فقال محمد بن داود – يهجوه ويستثير الناس عليه:

أَلا أيُّهــا الأغْفَــالُ إيهًــا تــأَمَّلُوا   وهــلْ يُــوقِظُ الأذْهــانَ غــيرُ التأمُّــلِ
ألــم تَعْلمــوا أنَّ ابــنَ طولــونَ نقمــةٌ   تُــسَيَّرُ مِــنْ سُــفْلٍ إلــيكمْ ومِــنْ عَــلِ
ولَــوْلَا جنايــاتُ الــذنوبِ لَمَــا عَلَــتْ   عليكمْ يدُ العِلْجِ السخيفِ المُجَهَّلِ
فكَمْ ضَجَّةٍ للنَّاسِ من خَلْفِ سترِهِ   تُــضجُّ إلى قلــبٍ عــن اللهِ مُغْفِــلِ[1]

ومن هجاء ابن داود لأحمد بن طولون – لما اتخذ الحصن في الجزيرة – قوله:

بَنَــى الجزيــرةَ حِــصْنًا يَــسْتَجِنُّ بــهِ   بالعسفِ والضَّرْبِ والصناعُ في تَعَبِ
لَــهُ مراكــبُ فــوقَ النيــلِ راكــدةٌ   فــما ســوى القــار للنظــار والخــشبِ
يُــرى عليهــا لبــاسُ الــذُّل مُــذْ بُنِيَــتْ   بالــشَّطِّ ممنوعــة مــن عــزة الطلــبِ
فَــمَا بَناهَــا لغــزوِ الــرُّومِ مُحْتَــسِبًا   لَكِــنْ بَناهَــا غــداةَ الــرَّوعِ للهَــرَبِ[2]

وظل ابن داود يهجو ابن طولون حتى توفي الأخير، ومع ذلك لم يقلع عن هجائه؛ بل رماه بعد وفاته بأشد أنواع الهجاء، ولم يتورع عن ذلك، بل شنع به تشنيعًا فظيعًا، ومن ذلك قوله:

عــرِّجْ عَــلَى اليَحْمُــومِ فــانْزِلْ بِــه   فاسْــلَحْ عَــلَى قــبرِ ابــنِ طُولُونَــا

(1) الولاة والقضاة، ص 216، 217.

(2) الولاة والقضاة، ص 218، 219.

وقُـــلْ لـــهُ يـــا شرَّ مُـــسْتودَعٍ ... أَخْفـــى لِـــدَمْعِ القَلْـــبِ مَلْعُونَـــا
يـــا حفـــرةَ النـــذَارِ التـــي أُضرِمَـــتْ ... وظَـــلَّ فيهَـــا الـــرِّجْسُ مَـــدْفُونَا
لا تَجْعـــــلِي لِبْـــــسةَ جُثْمانِـــــهِ ... إلاَّ الأفـــــاعِي والثَّعابينَـــــا[1]

وقوله:

مَـضَى غَـيْرَ مفقـودٍ ومَـا كـانَ عُمْـرُهُ ... سِـوى نقمـةٍ للخَلْـقِ شَـنْعَاءَ صَـيْلَمِ
لقـدْ زِيـدَ في اليحمـومِ بـالرِّجسِ لعنـةً ... ولم يُـسْقَ بـالمرجوسِ تُـرْبُ المقطـمِ
ولم تَبْكِـه الأرضـونَ لكِـنْ تبـسمتْ ... سُرورًا ولـــولا مَوتُـــهُ لَمْ تَبَـــسَّمِ
يُبَـــشِّرُهُ إبلـــيسُ عنـــدَ قُدومِـــهِ ... عليـــهِ بـــأَحْمَى بُقْعَـــةٍ في جَهـــنَّمِ
فـلا سُـقِيَتْ أجداثُـه صَـوْبَ مُزْنَـةٍ ... وأنَّـــى وفيهـــا شرُّ أولادِ آدمِ[2]

والحق أننا لا ندري سببًا لهذا الهجاء كله، والذي لا نكاد نعرف له مثيلًا في الهجاء العربي؛ فلقد كان الشعراء يتورعون عن هجاء الموتى أمام حرمة الموت، ولكن محمد بن داود – كما نعتقد – كانت بينه وبين ابن طولون خصومة حامية، فلم يكفه أن يظهر فرحه لموت ابن طولون؛ بل هجاه بهذه الأبيات وبغيرها، مما يدل على أن المصريين في هذا العصر قد اتخذوا الشعر وسيلة لهجاء الموتى، وهو الأمر الذي لم نجده في شعرهم قبل هذا العصر، "ولعل ابن داود كان موتورًا أو ساخطًا أو محرومًا أو مأجورًا، فحمل هذه الحملات العنيفة على ابن طولون في حياته وبعد مماته"[3].

(1) الولاة والقضاة، ص 232.

(2) الولاة والقضاة، ص 233.

(3) الأدب العربي في مصر، عبد الرزاق حميدة، ص 239.

ب- أبرز الأغراض الجديدة:

1- وصف مجالس اللهو والشرب [1]:

إذا تركنا الشعر الذي فرضته الأحداث على الشعراء، والتفتنا إلى هذا اللون من الشعر الذي يمكن أن نطلق عليه الشعر الذاتي، والذي لم نكد نعثر على شيء منه في العصور السابقة - وجدنا هنا منه وفرة وتنوعًا، مثل شعر الخمريات، ووصف مجالس اللهو والطرب، ومع هذا الشعر نجد مجموعة من القصائد والأبيات التي تصور الطبيعة المصرية.

ونستطيع أن نقول إن شعر الخمر وشعر الطبيعة يختلطان اختلاطًا كبيرًا؛ بحيث يتعذر الفصل بينهما في أكثر الأحيان، وسبب ذلك أن الأديرة التي كانت تقام فيها مجالس الطرب والعبث، كانت تبنى في ظاهر المدن، بعيدة عن الحياة اليومية، وتختار لها المواضع التي يمكن أن تستغل في الزراعة والحدائق والبساتين، وقد استغلها الشعراء في التنزه والتمتع بالجمال والإقبال على اللهو، فكان الدير موضعًا لشرب الخمر، وكان يقع في بقعة جميلة، فاختلط وصف هذه بتلك.

وهذا الشعر الذي وصف مجالس اللهو، نرى فيه الاستهتار، واطراح كلف الحياة جانبًا، والإقبال على الشراب، والأنس بالأحباب، ووصف الكئوس، وفعلها بالرءوس، ومعاطاة الندماء، والغزل بالظباء.

وفي الحق أن هذا الشعر لا يوجد إلا حين يكثر الترف، ويجترئ الناس على الدين، وتفتقد القدوة، وقد ساعد عليه بذخ الأمراء وإسرافهم، وأخذهم بحياة النعيم، وشرب الخمر والإسراف فيها، وسماع الغناء، ومما يؤثر عن ابن طولون أنه كان يبكر كل يوم، فيخرج لسماع قراءة الأئمة في المحراب، وكان مع ذلك يشرب الخمر، ويسمع الغناء، ويقرب المغنين[2].

---

(1) انظر: شعر الديارات في مصر من العصر الطولوني إلى العصر الفاطمي، د. غريب محمد علي، مجلة آداب حلوان، عدد 9، 10 ، سنة 2001.

(2) انظر: سيرة أحمد بن طولون، ص 348؛ وانظر: الأذكياء لابن الجوزي، ص 49.

وكان خمارويه يذهب كثيرًا إلى دير القصير؛ إذ بنى لنفسه غرفة في أعلاه [1]، وكان الشعراء يذهبون إلى هذه الأديرة، ويذكرون طيب هوائها، ويصفون نزهتهم ولهوهم ومجونهم، ويصفون المغنيات الجميلات، ويخطبون ودهن، وتنشأ بينهم علاقات فاسدة، يتحكم فيها الهوى وتحكمها الغرائز، ومن أمثلة ذلك الشعر الذي وصف هاتيك المجالس، قول الناشئ الأكبر (أبو العباس عبد الله بن محمد، ت سنة 293هـ) في جارية مغنية جميلة:

فَـــدَيتُكِ لـــو أنَّهُـــمْ أنْـــصَفُوكِ ... لـــرَدُّوا النَّـــواظِرَ عَـــنْ نَاظِريـــكِ
تَـــرُدِّينَ أعيُنَنَـــا عـــنْ سِـــوَاكِ ... وهـــلْ تَنْظُـــرُ العـــينُ إلَّا إلَيْـــكِ
وَهُـــمْ جَعلُـــوكِ رَقِيبًـــا عَلينَـــا ... فَمَـــنْ ذَا يكُـــونُ رَقِيبًـــا عَليـــكِ
أَلَـــمْ يقـــرأَوا ويْحَهُـــمْ مَـــا يـــرَوْن ... مِـنْ وَحْـي حُـسْنِك في وَجْنَتَيـكِ [2]

وللناشئ الأكبر شعر في الطرد والقنص والصيد، وطردياته على أسلوب طرديات أبي نواس.

ومن الشعراء الذين نجد في شعرهم ما يدل على سريان هذا التيار أبو جعفر بن أيوب، ودليلنا على ذلك قوله عن مجلس العباس بن أحمد بن طولون:

وَلَقَـــدْ قُلْـــتُ للأَخِـــلَّاءِ يَوْمًـــا ... قَـــوْلَ سَـــاعٍ بالنُّـــصْحِ لَـــوْ سَـــمِعُوه
إِنَّـــمَا مَجْلِـــسُ المُـــدَامِ بِـــسَاطٌ ... للمَـــودَّاتِ بَيِـــنَهُمْ وَضَـــعُوه
فـــإِذَا مَـــا انْتَهـــوا إِلَى مَـــا أَرَادُوا ... مِـــنْ نَعَـــيمٍ وَلَـــذَّةٍ رَفَعُـــوه [3]

(1) انظر: الديارات للشابشتي، تحقيق: كوركيس عواد، ص 284، ط ثانية، المعارف، بغداد، سنة 1966م.
(2) وفيات الأعيان، ج 2، ص 45.
(3) زهر الآداب، ج 2، ص 162.

وللعباس بن أحمد بن طولون شعر في هذا المجال – مجال الطرب والعبث واللهو ووصف الطبيعة – ومن ذلك الشعر قوله داعيًا جهارًا إلى الشرب بين أحضان الطبيعة الجميلة، والتأمل في مجاليها الحسان:

اشْربْ عَـلَى النِّيـلِ إذَا مَـا المَطَـرْ نُثـر فيـه مِثْـلَ نَثْـرِ الـدُّرَرْ

وانظـرْ إلى الرَّوضَـاتِ في شَـطِّهِ كَـأَنَّمَا تحْكِـي عَلَيـهِ الطُّـرَر

لا تَـسْقِنِي الكـأْسَ عَـلَى ذِكْـرِ مَـنْ غَـابَ وَكَـرِّرْ ذِكْـرَ مَـنْ قَـدْ حَـضَرْ [1]

ومعنى ذلك كله أن اللهو والمجون قد ظهرا في الشعر المصري، ولم يبال الشاعر المصري بالشعور الديني الذي كان يسود البلاد، ونعجب إذا عرفنا أن مثل هذا الشعر صدر عن شعراء كانوا على صلة وثيقة بالأمراء؛ بل كان بعضهم أميرًا، وهذا يدلنا على أن أمراء هذا العصر تهاونوا بالدين إلى حد أنهم سمحوا لأنفسهم وللشعراء المتصلين بهم أن يعبثوا بمثل هذه الأشعار.

والواقع أن الأمراء في هذا العهد أكثروا من الترف والنعيم، وأرادوا أن يتمثلوا بخلفاء الدولة العباسية في لهوهم ومجونهم.

2- رثاء الممالك [2]:

وقف الشعراء من الطولونيين بعد زوال ملكهم موقفين؛ أحدهما: شامت فرح بما أصابهم، مرحب بمن أتى بعدهم، ممجد لفتوحهم، والثاني: حزين باك، يرثي دولتهم، ويتفجع لما حل بهم، ويثير الأشجان لنكبتهم، وقد مثلنا للنوع الأول بمحمد بن داود، أما النوع الثاني فهو الذي يهمنا هنا، وهو نوع لا نجد له مثيلًا في الشعر العربي إلا في شعر الأندلسيين، ومن يقرأ الشعر المصري إثر العصر الطولوني يجد أن هذا الفن كان معروفًا، وأن شعراء مصر أكثروا في الحديث عنه، فبعد أن دالت دولة الطولونيين، وعاد

(1) المغرب، ص 141.

(2) انظر: هذا الموضوع بالتفصيل في كتاب: "دراسات في أدب مصر الإسلامية"، ج 1، د. غريب محمد علي.

الأمر إلى الخليفة العباسي، ودمرت القطائع، وخرب الميدان، قام الشعراء يرثون أيام الطولونيين وما بنوه، ويعددون مفاخرهم، ويصفون دورهم وبساتينهم وحدائقهم، ويأسفون على ما لحق هذه المنشآت من تدمير وتخريب، ويترحمون على الأيام الجميلة، والليالي الخوالي التي قضوها بين جنبات هذه المباني، وقد امتلأ شعرهم بالزفرات والحسرات على ما فعلته يد الحدثان بآل طولون، وما شادوا من قصور، وما كان لهم من ملك كبير.

لقد كان شعرًا مملوءًا باللوعة والأسى والشجن، مفعمًا بالبكاء والألم والأنين، ومن أرق المراثي التي وصلت إلينا، قصيدة لإسماعيل بن أبي هاشم، يتحدث فيها عما أصاب ميدان أحمد بن طولون، الذي كان من أهم مظاهر العظمة والحضارة الطولونية، وكانت دور وقصور الطولونيين تطل عليه، يقول ابن أبي هاشم:

قِـفْ وقفـةً بفنـاءِ بـابِ الـسَّاجِ ... والقـصْرِ ذِي الـشرُفاتِ والأبْـرَاجِ
ورُبـوعِ قـومٍ أُزْعِجُـوا عـن دارهـم ... بعـــدَ الإِقَامَـــةِ أيَّـــمَا إِزْعَـــاجِ
كـانوا مـصَابيحًا لـدى ظُلَـمِ الـدُّجى ... يـسرِي بهـا الـسَّارونَ في الإدْلاجِ
وكـــأنَّ أوجهَهُـــمْ إذا أبـــصرْتَها ... مـــن فِـــضَةٍ مَـــصْبُوغَةٍ أو عَـــاجِ
كـــانوا ليوثًـــا لا يُـــرامُ حمـــاهُم ... في كـــلِّ ملْحَمـــةٍ وكـــلِّ هِيـــاجِ
فـــانظرْ إلى آثـــارِهم تلقَـــى لهـــمْ ... علـــمًا بكـــلَّ ثنيَّـــةٍ وفِجَـــاجِ
وعلـيهمُ مـا عـشتُ لا أدَعُ البُكَـا ... مَـعْ كـلِّ ذي نَظَـرٍ وطَـرْفٍ سَـاجِ[1]

ولإسماعيل بن أبي هاشم أبيات من قصيدة أخرى، تفيض مرارة وحزنًا على ما أصاب بني طولون، يقول فيها:

يـا منـزلًا لبنِـي طُولـونَ قَـدْ دَثـرَا ... سقاكَ صرفُ الغوادي القطْرَ والمَطَرَا

(1) الخطط، ج 2، ص 119؛ وانظر: النجوم الزاهرة، ج 3، ص 140.

يــا منــزلًا صِرْتُ أجفُــوه وأهْجُــرُه ... وكـانَ يَعْـدِلُ عنـدي الـسَّمْعَ والبَـصَرَا
بــاللهِ عنــدَكَ علــمٌ مــن أحبتِنَــا ... أمْ هلَ سَمِعْتَ لهُمْ منْ بعدِنَا خَبَرَا؟ (1)

ولمحمد بن طشويه قصيدة كلها ألم وأنين وحزن وبكاء وحنين إلى أيام ابن طولون، وكلها حسرة على الميدان الذي خرب وراحت أيدي البلى تعصف به عصفًا، وتعبث بجوانبه عبثًا، يقول ابن طشويه:

أيــنَ الملــوكُ التــي كانــتْ تَحِــلُّ بــهِ ... وأيــنَ مَــنْ كــانَ بالإتْقَــان دبَّــرَه؟
وأيــن مَــنْ كــانَ يحمِيــه ويحرسُــه ... مِـنْ كـلِّ ليـثٍ يهـابُ الليـثُ منظـرَه؟
صــاحَ الزمــانُ بمَــنْ فيــهِ ففــرَّقَهم ... وحــطَّ ريــبُ الــبِلَى فيــه فَــدَعْثَرَه
كـمْ كـان فيـهِ لهـمْ مِـنْ مَـشْرَبٍ غـدِقٍ ... فعــبَّ صرفُ الــرَّدَى فيــهِ فكــدَّره
أيــنَ ابــنُ طولــونَ بانِيــه وســاكنُه ... أماتَــهُ الملــكُ الأعْــلَى فــأقْبَرَه؟
ما أوضحَ الأمرَ لو صحَّتْ لَنا فِكَرٌ ... طُـوبَى لِمَـنْ خـصَّهُ رُشْـدُه فَـذكَّرَه(2)

ولا يمكن أن نترك هذا الفن دون الإشارة إلى قصيدة سعيد القاص، الذي ذكر فيها تاريخ الطولونيين، وأشاد بأفعالهم، مقدمًا لنا العظة والعبرة من خلال عرض أسمائهم، ومخلدًا أيامهم، يقول سعيد القاص:

جَـرَى دَمْعُـهُ مـا بـينَ سَـحْرٍ إِلَى نَحْـرِ ... وَلَمْ يَجْـرِ حتَّـى أَسْـلمتْهُ يـدُ الـصَّبْرِ
وَهَلْ يستطيعُ الصَّبرَ مَنْ كان ذَا أَسًى ... يبيـتُ عـلى جَمـرٍ ويُـضْحِي عـلى جَمْـرِ
طـوَى زينـةَ الـدُّنيا ومِـصْباحَ أَهْلِهَـا ... بِفقْـدِ بنـي طُولُـونَ والأنجُـمِ الزُّهْـرِ
فبــادوا وأضْــحَوْا بعْــدَ عــزٍّ وَمَنْعَــةٍ ... أحاديـثَ لا تَخْفَـى علَى كُـلِّ ذِي حِجْـرِ

(1) الخطط، ج 2، ص 122.
(2) الخطط، ج 2، ص 121؛ وانظر: النجوم الزاهرة، ج 3، ص 141؛ وانظر: الولاة والقضاة، ص 264.

وكـانَ أبُـو العبـاسِ أحمـدُ ماجـدًا جميـلَ المُحَيَّـا لا يَبيـتُ عـلَى وِتْـرِ
وقـامَ أبـو الجـيش ابنُـهُ بعـدَ مَوْتِـهِ كمَا قامَ ليثُ الغابِ في الأَسَلِ السُّمَرِ
وَوَرَّثَ هـرُونُ ابنَـهُ تَـاجَ مُلْكِـهِ كذاكَ أبو الأشْبَال ذُو النَّابِ والهصْرِ
تـذكرتُهم لمَّـا مَـضَوْا فتَتَـابُعوا كما ارْفَضَّ سِلْكٌ مِن جُمَانٍ ومِنْ شَذْر
فَمَنْ يبكِ شيئًا ضَاع من بعْدَ أهْلِهِ لفقدهمِ فليبكِ حُزْنًا عَلَى مِصْرِ [1]

وقد انتهى هؤلاء الشعراء إلى حقيقة مهمة، هي أن الأيام دول، ولا خلود لإنسان أو دولة، إنما البقاء والخلود لله سبحانه وتعالى، وتظهر هذه الحقيقة في قول أحمد بن أبي يعقوب:

وانظرْ إلى تلكَ القصُور ومَا حَوَتْ واسْرحْ بزهـرةِ ذلـكَ البـستانِ
وإنْ اعتـبرْتَ ففيـهِ أيـضًا عِـبْرةٌ تُنْبيـكَ كيـف تَـصرُّفُ العـصْرانِ[2]

وتظهر أيضًا في قول إسماعيل بن أبي هاشم:

واللَّهُ وارثُ كـلِّ حـيٍّ بعـدَهُم ولـهُ البقَـاءُ وكـلُّ شيءٍ فـانِ [3]

وبتلك الأبيات التي أوردناها أمثلة شاهدة على هذا النوع من الشعر، نستطيع أن نقول: إن الشعراء المصريين أخذوا منه بنصيب وافر، وكانوا سابقين على إخوانهم في المشرق والمغرب؛ إذ لم يسبق لنا أن عثرنا على بكائيات في دول أخرى قبل هذا الشعر الذي قيل في مصر.

وبهذا الحكم الذي أطلقناه، يمكن أن نبطل الرأي الشائع بين الدارسين من أن الأندلسيين هم الذين ابتكروا هذا الفن في الأدب العربي.

(1) الخطط، ج 2، ص 119، 120؛ وانظر: الولاة والقضاة، ص 253 وما بعدها.
(2) الولاة والقضاة، ص 250.
(3) الخطط، ج 2، ص 123.

ب- النثر

وجدت فنون نثرية في العصر الطولوني كان أهمها ما يلي:

أ- الخطابة:

كان لابد أن تستمر الخطابة؛ وذلك لحاجة المجتمع الإسلامي إليها، ولكن لم يكن لها في ذلك العصر ما كان للكتابة من شأن؛ ومن ثم يمكن القول إن قيام الكتابة وازدهارها في تلك الفترة أصاب الخطابة بالوهن، بالإضافة إلى ما عرف عن ولاة ذلك العصر عامة من ضعف في اللغة، ولكن لا يجب أن نسلم بفنائها أو ذهابها، وإنما يمكن القول إن دواعي ازدهارها قد قلت، وإن ما بقي منها تغلب عليه المسحة الدينية، وكان لا بد أن تشتمل على دعاء للخليفة ومن يحالفه، وربما ذلك بصيغ معينة.

ب- الكتابة:

ازدهرت الكتابة في العصر الطولوني؛ وذلك لحاجة الطولونيين إليها، وبسبب وجود ديوان الإنشاء، الذي قام عليه مجموعة من الأدباء المعروفين بالبلاغة، على رأسهم ابن عبد كان، الذي حفظ لنا صبح الأعشى كثيرًا من رسائله ومكاتباته[1].

وقد كان للكتابة الطولونية خصائص، يمكن إجمالها فيما يلي:

1- افتتاح الرسائل الديوانية بقولهم: " من فلان إلى فلان".

2- افتتاح الرسائل الإخوانية بالدعاء وطول البقاء ودوام النعمة.

3- الدعاء بصيغ معينة، مثل: "جعلت فداك"، أو بصلاح الدنيا وغبطة الآخرة وطيب الحياة.

4- اختتام الرسائل بالأدب والتلطف والتكلف في القول.

---

(1) صبح الأعشى، القلقشندي، ج 1، ص 95، ومواضع متفرقة.

وانظر: ابن عبد كان وفن الرسائل في مصر الطولونية، د. غريب محمد علي، مجلة كلية الآداب بقنا، عدد 10، سنة 2000م.

obeikandi.com

ج- القصص:

ظهر في ذلك العصر كتاب قصصي منظم، يعد من أقدم كتب القصص لدينا، وهو كتاب مصري، ونعني به كتاب "المكافأة" (1) لأحمد ابن يوسف بن إبراهيم.

وهذا الكتاب عبارة عن قصص قصيرة لحوادث جرت للمؤلف، أو رواها عن غيره، وكلها يدور حول المكافأة على الإحسان أو الإساءة على القبح، وقد جعل كلمة المكافأة شاملة للنوعين، وهو يحتوي على إحدى وسبعين قصة، وينقسم ثلاثة أقسام:

القسم الأول: المكافأة على الحسن، ويشتمل على إحدى وثلاثين قصة، تحث الإنسان على فعل الخير، توقعًا للمجازاة بالخير.

القسم الثاني: "المكافأة على القبيح"، ويشتمل على إحدى وعشرين قصة، تحذر من فعل الشر؛ خوفًا من سوء المجازاة بالشر.

القسم الثالث: ويشتمل على تسع عشرة قصة، تدور حول من وقع في شدة، ثم خلص منها، وكان عرضة لضياع ماله أو فقدان نفسه، فرد إليه ماله، ووهبت له نفسه، وقدم الكاتب للكتاب بمقدمة تبين فضل هذه القصص، ثم ختم الكتاب بحكم مروية عن السابقين في قيمة الصبر واحتمال الشدة.

ولهذا الكتاب قيمة أدبية وأخلاقية وتاريخية:

أما الأدبية:

ففي أسلوب المؤلف في عرض القصة؛ إذ إنه أسلوب جزل رصين، يحكم التعبير عن المعنى بأوجز عبارة وأمتنها وأقواها، والعبارة سهلة مناسبة للموضوع، حتى صار الكتاب بسهولته خليقًا بأن يدرسه متوسطو طلاب العربية في غير ملل، ويدلنا الكتاب على أثر من آثار الثقافة المصرية الخالية من الفلسفة والمنطق.

(1) انظر: هذا الكتاب بتحقيق وتصحيح: أحمد أمين وعلي الجارم، ط المطبعة الأميرية، مصر، سنة 1941م.

وأما من الناحية الأخلاقية:

فقد التزم الكتاب عرض قصص تدل على النبل والمروءة، وعلى مجازاة الحسن بالحسن، والقبيح بالقبيح، والحث على الصبر عند الشدائد، وهذا ضرب من ضروب التعليم بالمثل، والحق أن فكرة الكتاب كلها أخلاقية، تحمل قارئه على التمسك بأهداب الإحسان؛ لأنه يحتاج إلى المكافأة على ذلك، فإن لم ينلها في نفسه نالها في عقبه، وهكذا لا يضيع الإحسان أينما وضع، كما أن فيه إنذارًا للمسيء بأن يلقى جزاء إساءته فلا يفلت منها.

وأما الناحية التاريخية:

ففي الكتاب قصص تاريخية، توضح بعض ما جاء في كتب التاريخ، وقصص مصرية طولونية، تدل على نواح كثيرة في الحياة الاجتماعية والاقتصادية في ذلك العصر.

هذا بالإضافة إلى ما له من قيمة في تاريخ الأدب؛ فالكتاب عظيم الفائدة والقيمة من ناحية دلالته على الأسلوب الأدبي في مصر في العصر الطولوني، وما كان يستعمل من عبارات مصرية أدبية، هُجر بعضها، وبقي بعضها.

***

obeikandl.com